العلاقات الخارجية للسلطان المستنصر الحفصى (٦٤٧– ٦٧٥هـ/ ١٢٤٩ – ١٢٧٧م)

إعداد

ريحاب محمود إبراهيم محمد حسانين

مقدمة :

عاشت الدولة الحفصية فى عصر السلطان المستنصر الحفصى عصراً ذهبياً بما تحمله الكلمة من معنى ، حيث قام والده السلطان أبو زكرياء (٦٢٥-٦٤٧هـ /١٢٢٧-١٢٤٩م بإنشاء الدولة الحفصية، ثم استكمل ابنه السلطان المستنصر توطيد أركانها، فعلى المستوى الخارجى،شهد العالم الإسلامى تطورات خطيرة، بالغة الصعوبة، كان لها أثر كبير فى مجريات الأمور فى الدولة الحفصية، وعلى السلطان المستنصر نفسه. فقد انتهى حكم الدولة الأيوبية بعد ولايته بعام واحد (٦٤٨هـ/١٢٥٠م)، وفى عهده دب الضعف فى جسد الموحدين فى المغرب الأقصى، وبدأ نجم بنى مرين فى السطوع والموحدي فى الأفول حتى انتهى الحكم الموحدى نهائيًا عام ٦٦٨هـ/١٢٧٠م.

كما كانت الخلافة العباسية قد تعرضت لنكبة كبرى معاصرة لعهد السلطان المستنصر وهى دخول المغول بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله العباسى فى عام ٥٦٥هـ /١٢٥٨م، الأمر الذى جعل معه منصب الخليفة فى العالم الإسلامى خالياً، فبحث الجميع عن دولة يمكن أن تحمل الراية فى العالم الإسلامى فلم يجدوا دولة إسلامية قوية فتية يمكن أن تقوم بهذا الدور سوى الدولة الحفصية، الأمر الذى جعل أمير مكة المكرمة يبايعه خليفة للمسلمين فى عام ٦٥٧هـ /١٢٥٩م ، وكان أن بايعه بنو مرين فى المغرب الأقصى على ذلك عام ٦٥٢ هـ/١٢٥٤ م، ونتيجة لما سبق فقد تلقب السلطان المستنصر فى البداية بلقب أمير المؤمنين، ثم خليفة المسلمين.

كما أن بلاد المغرب الأدنى فى عهد السلطان المستنصر كانت قد شهدت مجىء الحملة الصليبية الثامنة على سواحل المغرب الأدنى، فهاجمت تونس عام ٦٦٨هـ/١٢٧٠م، ونجح السلطان المستنصر فى التصدى لها، ولولا قوة الدولة الحفصية وتماسكها فى عهد السلطان المستنصر لنجحت هذه الحملة فى احتلال المغرب الأدنى.

وهذا البحث يتناول العلاقات الخارجية للسلطان المستنصر الحفصى فى ثلاث اتجاهات رئيسية : العلاقات مع دول المغرب الإسلامى، ثم العلاقات مع المشرق الإسلامى، ثم العلاقات مع الدول الأوربية فى تلك الفترة.

أولاً :علاقات المستنصر مع دول المغرب الإسلامى :

-الدولة الزيانية :

سعى مؤسس الدولة الحفصية السلطان أبو زكرياء الحفصى لضم مساحات واسعة من أملاك الموحدين فى الشمال الأفريقى، لذلك بعد إعلانه قيام الدولة الحفصية فى عام ٦٢٥هـ /١٢٢٧م، بدأ يسعى للتقرب من حاكم مدينة تلمسان [١] قاعدة المغرب الأوسط وكان يحكمها باسم الموحدين عبد الواحد يغمراسن بن زيان [٢]، وبدأ أبو زكرياء يمهد لضم المغرب الأوسط للدولة الحفصية، وطلب من يغمراسن الدخول فى طاعته لتصبح الدولة الحفصية ممتدة من حدود مصر وحتى حدود المغرب الأقصى، إلا أن يغمراسن رفض ما عرضه عليه السلطان أبو زكرياء، وفضل أن يظل فى طاعة الموحدين. [٣]

(١) تِلمِسْان : مدينة قديمة، وعاصمة الدولة الزيانية فى المغرب الأوسط، قريبة من مدينة وهران، وبينهما مرحلتان،، وهي مدينة تجارية يقصدها الكثير من التجار وتعتبر طريقهم إلى سجلماسة. انظر الحميرى: الروض المعطار فى خبر الأقطار – تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٤م، ص ص١٣٥ –١٣٦.

(٢) أبو يحيى يغمراسن بن زيان أشهر ملوك بني زيان فى المغرب الأوسط ، ولد عام ٦٠٣هـ/١٢٠٦م، وبويع حاكما لدولة بنى زيان عام ٦٣٣هـ/١٢٣٥م. عنه انظر : يحيى بن خلدون: بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد – تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر، ١٩٨١م.، ص٢٠٤.

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر – تحقيق خليل شحاتة، بيروت، ٢٠٠٠م، ج ٦، ص ص ٣٨٣–٣٨٥؛ ابن قنفذ: الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية – تحقيق محمد الشاذلى النيفر، وعبد المجيد التركى، تونس، ١٩٦٨م.، ص ١٨؛ الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية– تحقيق محمد ماضور، تونس، ط ٢، ١٩٦٦م، ص ٢٩؛ بسام كامل عبد الرازق شقدان:

إلا أن ذلك لم يكن ليرضى غرور السلطان أبو زكرياء الحفصى ورغبته فى ضم المغرب الأوسط فاستغل دعوة بعض قبائل المغرب الأوسط له للتدخل وتخليصهم من حاكمهم من قبل الموحدين يغمراسن، ويطلبون منه الزحف بجيشه على تلمسان، وبالفعل خرج أبو زكرياء على رأس جيش كبير فى عام ٦٤٠هـ /١٢٤٢م متجهاً للمغرب الأوسط، وتمكن من فرض الحصار على تلمسان، فهرب يغمراسن منها، وتفاوض مع أبو زكرياء على العودة للمدينة مع قبوله الدخول فى طاعة السلطان الحفصى، مع تعهده بالانفصال التام عن طاعة الموحدين، والدعوة على المنابر للسلطان أبو زكرياء الحفصى(١).

وبعد وفاة السلطان أبو زكرياء عام ٦٤٧هـ /١٢٤٩م وتولى المستنصر حكم الدولة الحفصية، واتجه المستنصر بسياسة جديدة فى المغرب الأوسط ترمى إلى انتزاع مساحات واسعة منه، لتوسيع حدود دولته على حساب دولة بنى زيان بالمغرب الأوسط، وإقرار الأمن والاستقرار على ما كان قد انتزعه والده منهم، وفى عام ٦٥٠هـ /١٢٥٢م توجه المستنصر إلى بجاية لهذا الغرض، واهتم بعمرانها ومظاهر الحضارة فيها، ليعلن لسلاطين بنى زيان مدى أهمية المدينة بالنسبة للحفصيين، الذين كانوا يعتبرونها العاصمة الثانية للدولة بعد تونس. وولى عليها الوالى أبو الهلال عياد بن سعيد، الذى استمر والياً عليها حتى وفاة المستنصر عام ٦٧٥هـ/١٢٧٧م ، واستمرت تابعة للدولة الحفصية بعد ذلك طوال عصرها (٢).

تلمسان فى العهد الزيانى، راسلة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٢م، ص ص ١١٠-١١١.

(١) ابن خلدون : العبر، ج ٦، ص ص ٣٩٠-٣٩٣؛ ابن قنفذ: الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية، ص ص ١٨-١٩.

(٢) أمنية بوتشيش : بجاية دراسة تاريخية وحضارية بين القرنين السادس والسابع هجريين، رسالة ماجستير، جامعة أبى بكر بلقايد، تلمسان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٨-، ص ص ٢٦-٣٠.

وفى عام ٦٥١هـ /١٢٥٣م حاول بنى النعمان من قبيلة هنتاتة البربرية فى المغرب الأوسط فى ولاية قسنطينة [١]خلع طاعة الحفصيين والاستقلال بالولاية وبعض أجزاء من المغرب الأوسط، فتصدى لهم المستنصر وأخضع الولاية وأحوازها لهم، فتوجه إليهم فى جيش كبير، وأخضعهم له[٢].

وبعد مبايعة المستنصر الحفصى خليفة للمسلمين من قبل شريف مكة عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م، بايع بنى عبد الواد بتلمسان المستنصر خليفة للمسلمين . [٣]

-المغرب الأقصى :

غداة قيام الدولة الحفصية فى المغرب الأدنى كانت الدولة الموحدية لا تزال تحكم المغرب الأقصى مع قيام قبائل بنى مرين بحدوث اضطرابات بالإغارة المتكررة على أملاك الموحدين تمهيداً لقيام دولتهم بالمغرب الأقصى بعد ذلك[٤].

وعندما تمكن السلطان أبو زكرياء الحفصى من ضم تلمسان لطاعته فى عام ٦٤٠هـ /١٢٤٢م فكر جدياً فى أن تكون الدولة الحفصية هى الخليفة الشرعى للدولة الموحدية فى المغرب كاملاً، لذلك بدأ يطلب طاعة بعض المدن والقبائل فى المغرب الأقصى، ولقت دعوته قبولاً فى بعضها مثلما حدث فى من مبايعة أهالى مدينة طنجة له فى عام ٦٤٠هـ /١٢٤٢م[٥].

---

(٤) قُسَنطِينة : بالضم ثم الفتح، ثم نون وطاء مكسورة، وياء مثناه، ونون بعدها ياء خفيه وهاء. وهى بلدة ببلاد المغرب الأوسط من حدود إفريقية من تأسيس الفينيقيين، أُعيد بناءها فى عهد الإمبراطور البيزنطى قنسطنطين الأول،وسميت منذ ذلك الحين قسنطينة. انظر : البغدادى : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع- تحقيق على محمد البجاوى، مكتبة الحلبى، القاهرة، ١٩٥٤م، جـ ٣، ص ص -١٠٩٢ ١٠٩٣.

(٢) ابن قنفذ: الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية، ص ١٨١.

(٣) السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى – الدار البيضاء، ١٩٥٥م، ج٣، ص ٢٨.

(٤)ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس – الرباط، ١٩٧٣م، ص٢٩٠؛ ابن خلدون : المصدر السابق، ج٧، ص٢٢٧.

(٥) ابن خلدون : العبر، ج٦، ص ص ٤١٧-٤١٨؛ ابتسام مرعى خلف الله : العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامى ٥٢٤-٩٣٦هـ /١١٣٠-١٥٢٩م، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ص ١٩٠-١٩٤.

وفى نفس العام طلب أهالى مدينة سبتة[١]، المهمة فى المغرب الأقصى الدخول فى طاعة السلطان الحفصى، فقد دخل حاكمها من قبل الموحدين ويسمى ابن خالص فى طاعة الدولة الحفصية منهياً بذلك التبعبية للدولتة الموحدية، وظلت على ذلك لفترة[٢].

ويعتبر تطور الأمر فى المغرب وامتداد النفوذ الحفصى فى المغرب الأقصى بهذه الصورة بداية ملموسة للقضاء على النفوذ الموحدى فى بلاد المغرب بأكمله، فقد كانت بيعة مدينة سجلماسة [٣] للحفصيين أيضاً فى نفس العام انتصاراً للدولة الحفصية غير مسبوق[٤]، على الرغم من عودتها إلى طاعة الموحدين فى مراكش مرة أخرى فى العام نفسه. [٥]

وفى عام ٦٤٣هـ /١٢٤٥م كانت قد وصلت مبايعة أهل مدينة مكناسة للسلطان أبو زكرياء الحفصى، مما يؤكد أن الدولة الحفصية كانت تسعى جدياً لتكون الوريث الشرعى للدولة الموحدية [٦].

(١) سَبْتَة : مدينة مغربية تقع فى شمال بلاد المغرب الإسلامى بينها وبين فاس عشرة أيام ويقابها على الشاطىء الأندلسى مدينة الجزيرة الخضراء، وفى العصر الإسلامى كان ميناء سبتة من أجود المراسى. انظر : البغدادي : مراصد الاطلاع، ج٢، ص٦٨٨.

(٢) ابن قنفذ: الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية، ص ص١٠٩-١١٠؛ ابتسام مرعى خلف الله : العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامى، ص ١٩٤.

(٣) مدينة سِجِلْماَسة : مدينة من أعظم مدن المغرب، وموقعها على طرف الصحراء وهي مدينة تجارية يقصدها الكثير من التجار من كل حدب وصوب. انظر : الحميرى: الروض المعطار،ص ص٣٠٥-٣٠٦.

(٤) ابن خلدون : العبر، ج ٦، ص ص ٣٩٥-٣٩٦؛ ابن قنفذ: الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية، ص ص١٠٩-١١٠.

(٥)ابن قنفذ: الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية، ص ١١٠.

(٦) ابن خلدون : العبر، ج ٦، ص ص ٣٩٥-٣٩٦؛ ابن قنفذ: الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية، ص ص ١٩-٢٠؛ ابتسام مرعى خلف الله : العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامى، ص ١٩٤.

أما ما يتعلق ببنى مرين فى المغرب الأقصى فعلى الرغم من أن قيام دولتهم كان فى عام ٦٦٨هـ /١٢٦٩م إلا أنهم بايعوا السلطان الحفصى أبو زكرياء منذ وصول دعوته للمغرب الأقصى، فقد أعلنوا فى عام ٦٤٣هـ /١٢٤٥م البيعة والتبعية للسلطان الحفصى (١).

وعن موقف بنى مرين ودعوتهم لسلطان بنى حفص فى تونس يقول المؤرخ ابن خلدون:""... كان بنو مَرين كما قدَّمناه قد تمسّكوا بطاعة الأمير أبي زكريا ودخلوا في الدعوة الحفصيّة، وحملوا عليها من تحت أيديهم من الرعايا مثل : أهل مكناسة وتازى والقصر، وخاطبوا السلطان بالتمويل والخضوع ..." (٢)

ويمكن القول أن السبب فى توجه بنى مرين للبيعة والدعوة للحفصيين فى تونس، هو ما كان ببلاد المغرب الأقصى من موقفهم وعدائهم مع الخلافة الموحدية التى كانوا يكنون لها العداء ويدخلون معها فى حرب مستمرة، على الرغم من أن الحفصيين أحد فروع الموحدين، وينهرهم أحد المؤرخين بقوله "". دعوا إلى طاعة الحفصيين الذين هو فرع منهم، والدعوة إلى الفرع كالدعوة إلى أصله..."(٣)

وبعد وفاة أبو زكرياء وتولى السلطان أبو عبد الله محمد المستنصر فى عام ٦٤٧هـ /١٢٤٩م استمرت بيعة بنى مرين للدولة الحفصية، واستمروا فى إرسال البيعة لهم، فقد أرسل زعيم بنى مرين وأميرهم أبو يحيى بن عبد الحق المرينى فى عام ٦٥٢هـ /١٢٥٤م مجداً بيعته للحفصيين، بل سعى بنو مرين للدعوة لدخول مدن المغرب الأقصى فى طاعة المستنصر، ففى ذلك العام كان وفد بنى مرين يضم بعض أهال مدينة فاس (٤)معلنين طاعتهم للسلطان الحفصى المستنصر. (٥)

(١) ابن خلدون : العبر، ج ٦، ص ٤١٧.

(٢) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(٣) السلاوى : الاستقصا، ج٣، ص ٢٨.

(٤) فَاس : إحدى المدن المهمة فى بلاد المغرب الأقصى، وتعتبر قاعدته وبها عدوة الأندلسيين التى تأسست في عام ١٩٢هـ/٨٠٧م وهناك بها عدوة القرويين تأسست عام ١٩٣هـ/ ٨٠٨م ويفصل بينهما نهر كبير يعرف بوداى فاس . انظر : الحميري : الروض المعطار، ص٤٥٥.

(٥) ابن قنفذ: الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية، ص ص ١٨٠-١٨١.

ويذكر المؤرخ ابن خلدون أمر قدوم الوفود من المغرب الأقصى على السلطان الحفصى المستنصر بقوله :".... ولمّا هلك السلطان وولي ابنه المستنصر، وقارن ذلك ولاية المرتضى بمراكش. ثم كان بينهم وبين المرتضى من الفتنة والحرب ما ذكرناه ونذكره، فاتصل ذلك بينهم وبعث الأمير أبو يحيى بن عبد الحق بيعة أهل فاس، وأوفد بها مشيخة بني مَرين على السلطان وذلك سنة اثنتين وخمسين وستمائة فكان لها موقع من السلطان والدولة. وقابلهم من الكرامة كل على قدره، وانصرفوا محبورين إلى مرسلهم. ولما هلك أبو يحيى بن عبد الحق، واستقل أخوه يعقوب بالأمر أوفد إليه ثانية رسله وهديّته، وطلب الإعانة من السلطان على المرتضى وأمر أهل مراكش على أن يقيموا بها الدعوة له عند فتحها. ولم يزل دأبهم هذا إلى أن كان الفتح...." (١)

والجدير بالذكر هنا أنه بعد مبايعة المستنصر الحفصى خليفة للمسلمين من قبل شريف مكة عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م، قدم إلى تونس وفد مرينى لإعلان بيعتهم للخليفة الجديد للعالم الإسلامى، وهو المستنصر. (٢)

وبعد وفاة أمير المرينيين أبى يحيى المرينى وتولية أخيه يعقوب المرينى، أوفد للسلطان الحفصى وفداً لمبايعته وتجديد البيعة لبنى حفص، وكان الوفد محملاً بالهدايا الثمينة، وطلب بنو مرين من السلطان الحفصى مساندتهم فى حربهم ضد الخلافة الموحدية التى كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة. (٣)

ويمكن القول أن السبب فى بيعة بنى مرين وإلحاحهم فى إتمامها وإعلانها لبنى حفص يرجع لعاملين أساسين، الأول منهما أن بنى مرين كانوا فى حاجة لمساعدات بنى حفص للتصدى للخلافة الموحدية التى كانت قد انكمشت ولم يعد لها من بلاد تحكمها سوى المغرب الأقصى مقر إقامة بنى مرين، والثانى أن مبايعتهم للدولة الحفصية بالخلافة يحقق آمالهم فى وجود مبرر فى

(١) ابن خلدون : العبر، ج٦، ص ٤١٧.

(٢) السلاوى : الاستقصا، ج٣، ص ٢٨.

(٣)السلاوى : الاستقصا، ج٣، ص ٢٨.

حربهم ضد الخلافة الموحدية وهو وجود خليفة شرعى آخر يجب الالتفاف حوله هو الخليفة الحفصى، الذى استمد شرعية لم يصل إليها أى من الخلفاء الموحدين وهى بيعة أهل الحجاز له، وعلى رأسهم شريف مكة.

أما عن بيعة بلاد السودان الغربى للسلطان الحفصى محمد المستنصر فقد قدم الوفد السودانى فى ٦٥٥هـ /١٢٥٧م، يحمل الهدايا مع البيعة، فيذكر المؤرخ ابن خلدون أنه "... وصلت هدية ملك كانم من ملوك السودان، وهو صاحب برنو مواطنه قبلة طرابلس، وكان فيها الزرافة وهو الحيوان الغريب الخلق المنافر الحلى والشيات، فكان لها بتونس مشهد عظيم برز إليها الجفلى من أهل البلد حتى غصّ بها الفضاء، وطال إعجابهم بشكل هذا الحيوان وتباين نعوته، وأخذها من كل حيوان بشبه. وفي سنة ثمان وخمسين وستمائة وصل دون الرنك أخو ملك قشتالة مغاضباً لأخيه، ووفد- على السلطان بتونس فتلقّاه من المبرّة والحباء بما يلقى به كرام القوم وعظماء الملوك، ونزل من دولته بأعزّ مكان. وكان تتابع هذه الوافدات مما شاد بذكر الدولة ورفع من قدرها...." (١)

- مع دولة بنى الأحمر فى الأندلس :

عندما قامت الدولة الحفصية فى المغرب الأدنى كان الوجود الموحدى فى بلاد الأندلس قد بدأ يتلاشى، وكانت هزيمة الموحدين فى الأندلس على أيدى مملكة قشتالة عام ٦٠٩هـ/١٢١٢م فى موقعة العقاب، بداية النهاية للوجود الموحدى فى بلاد الأندلس، لذلك اضطربت البلاد، وطمع القادة المسلمون فى انتزاع مساحات واسعة من أملاك الدولة الموحدية فى الأندلس على غرار ما تم فى بلاد المغرب.

وكان ضعف الموحدين وهزيمتهم أمام الجيوش المسيحية فى الأندلس السبب فى اتجاه الممالك المسيحية فى الأندلس لضم أملاك المسلمين، فتقدمت القوات الأراجونية وفرضت حصاراً قوياً على مدينة بلنسية فى عام ٦٣٥هـ /١٢٣٧م، فخرج من بلنسية وفد من أهلها أرسله أبو

(١)ابن خلدون : العبر، ج٦، ص ٤١٧.

جميل زيان بن مردنيش والى الموحدين على بلنسية لطلب النجدة من السلطان الحفصى أبو زكرياء، وكان أن تولى العالم محمد بن عبد الله بن أبى بكر المعروف بابن الآبار القضاعى (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) رئاسة هذا الوفد [١].

ولما وصل ابن الآبار تونس عاصمة الدولة الحفصية أنشد قصيدة طويلة يستنجد فيها بالسلطان الحفصى أبو زكرياء، كان مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منك عز النر مُلتمسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جرزاً للحادثات وأمسى جدها تعسا
ففي بلنسية منها وقرطبةً ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائنٌ حلها الأشرك مبتسماً جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا[٢]

ولأن السلطان أبو زكرياء كان يحكم أقوى دول المغرب الإسلامى فى تلك الفترة، وكان يعلم جيداً الدور المحورى الذى تلعبه الدولة الحفصية فى بلاد المغرب والذى يمكنها من تحقيق رغبتهم فى أن يرثوا كل أملاك الموحدين، أرسل لأهل بلنسية أسطولاً كبيراً من المساعدات كان يضم ثمانية عشرة قطعة بحرية محملة بالسلاح والمؤن والعتاد، إلا أنه غداة وصوله لبلنسية كانت قد لقيت مصيرها بالسقوط فى قبضة الجيش الأراجونى، فعادت السفن للمغرب [٣].

(١) الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص ص ٢٥-٢٦؛
James A. Bellamy: Ibn al-Abbar, polític i escriptor àrab valencià (1199-1260): Actes del Congrès Internacional "IbnAl-Abbar i el seu temps," Onda, 20-22 febrer, 1989,pp.313-314.

(٢) ابن الآبار: الحلة السيراء تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة،١٩٨٥م، ص٣٥.

(٣) ابن خلدون : العبر، ج٦، ص ٣٨٨؛ ابن قنفذ : الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية، ص ١١٠؛ الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص ص ٢٥-٢٦؛
James A. Bellamy: Ibn al-Abbar, polític i escriptor àrab valencià,pp.313-314.

ومن الأمور المهمة فى العلاقات الحفصية مع دولة بنى الأحمر التى ورثت الموحدين فى بلاد الأندلس، هو أن الخليفة الموحدى على بن إدريس الملقب بالسعيد (٦٤٠-٦٤٦هـ /١٢٤٢-١٢٤٦م) كان قد قام بقطع المساعدات التى كانت ترسلها الدولة الموحدية إلى دولة المسلمين فى الأندلس، وهى دولة بنى الأحمر حتى تتمكن من التصدى لهجمات النصارى، فقام مؤسس مملكة غرناطة محمد ابن الأحمر بقطع دعوته للموحدين، وبايع السلطان الحفصى أبو زكرياء مقابل الحصول على المساعدات، وبالفعل بعد وصول طلب الدخول فى طاعته أرسل أبو زكرياء الحفصى، المساعدات لابن الأحمر [١].

وفى عام ٦٤٦هـ /١٢٤٨م عندما اشتد الحصار القشتالى على مدينة إشبيلية إحدى المدن الأندلسية المهمة، تم إرسال وفد أندلسى من أهلها للسلطان أبى زكرياء الحفصى يطلب منه العون والمدد للوقوف فى وجه الحصار القشتالى للمدينة، إلا أنه مثلما حدث مع أهل بلنسية حدث مع أهل إشبيلية، حيث لم يتمكن الأسطول الحفصى من الوصول إليها ولاقت مصيرها بالسقوط فى قبضة القشتاليين فى عام ٦٤٦هـ /١٢٤٨م. [٢]

- مع المشرق الإسلامى:

سعى أبو زكرياء مؤسس الدولة الحفصية لتوطيد علاقاته مع المشرق الإسلامى، وفى نفس العام الذى توفى فيه السلطان الحفصى أبو زكرياء كانت الحملة الصليبية على دمياط، والتى كانت أنباء خروجها من أوروبا متجهة لدمياط قد وصلت لمسامع السلطان الحفصى أبو زكرياء، الذى قام بدوره بإرسال أبناء خروج تلك الحملة للسلطان الأيوبى الملك الصالح نجم الدين أيوب، ويذكر ابن قنفذ القسنطينى فى كتابه الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية أن السلطان أبو زكرياء كان قد ارسل رسالة إلى السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين أيوب، ووصل رسول السلطان الحفصى للقاهرة ودخل على السلطان الأيوبى وأوصله رسالة السلطان الحفصى التى كانت تحمل

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة فى أخبار غرناطة – تحقيق عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٧٤م، حـ٢، ص٩٧؛

(٢) ابن خلدون : العبر، ج٦، ص ٣٩٥؛ ابن قنفذ : الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية، ص ١١٠.

معنى خروج الحملة من أوروبا وتوجهها إلى مصر، ويضيف ابن قنفذ القسنطينى أن السلطان الحفصى اعتذر للسلطان الأيوبى عن عدم قدومه على رأس جيشه مدافعاً عن أرض مصر، وذلك لانشغاله بكثرة غارات النصارى على الشواطىء الحفصية، وبخاصة ما قامت به صقلية من غارات، علاوة على كثرة غارات أعراب إفريقية على دولته الحفصية [١].

إلا أن تطور الأحداث فى بلاد المشرق الإسلامى فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى قد انعكس على العلاقات الحفصية المشرقية بصورة كبيرة، حيث كان المغول قد بدأوا فى اجتياح العالم الإسلامى منذ مطلع القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، وأخضعوا منه مساحات واسعة حتى انتهى الأمر بقتلهم للخليفة العباسى، بعد سيطرتهم على بغداد فى عام ٦٥٦هـ /١٢٥٨م.[٢]

وما يخص العلاقات الحفصية المشرقية هنا أنه بمقتل الخليفة العباسى فى بغداد، خلا العالم الإسلامى بأسره من وجود خليفة، ورمز إسلامى يلتف حوله المسلمون، ومن هنا اتجهت أنظار أهل الحجاز نظراً لموقعهم ومكانتهم فى العالم الإسلامى فى تلك الفترة، للبحث عن خليفة للمسلمين يلتف حوله الجميع، ويسد الفراغ الذى حل بالعالم الإسلامى بعد سقوط بغداد والقضاء على الخلافة العباسية، ووعلى الرغم مما تمتعت به مصر من مكانة فى العالم الإسلامى فى العصور المختلفة، إلا أن الأنظار التى اتجهت إليها لم تكن قد وجدت فيها مقومات الخلافة فى تلك الفترة، حيث أن الدولة الأيوبية كانت قد بدأ نجمها فى الزوال، وبدأ يسطع نجم دولة فتية جديدة هى دولة المماليك، التى من وجهة نظر العالم الإسلامى فى تلك الفترة لا يمكن أن يرتقوا مرة واحدة من الرقيق وهو أصلهم لتولى الخلافة وهو منصب رفيع من شأنه قيادة العالم الإسلامى فى تلك الفترة ، فهم باختصار ".. خليط من رقيق جلبوا من بلاد أعجمية واستبدوا بالسلطة بعد

(١) ابن قنفذ : الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية، ص ١١٢.

(٢)ابن الأثير: الكامل فى التاريخ دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م، ج١٣، ص ص ١٥٩-١٦٠؛ ابن خلدون : العبر، ج٦، ص ٤٠٧.

سقوط الأيوبيين.. ". [١] علاوة على ذلك فإن ابن خلدون يذكر أنه ثمة خلافات كانت قد نشبت بين شريف مكة ودولة الأيوبيين فى مصر، وأجمل ذلك بقوله"... وجبت بينهم (يقصد بنى أيوب) وبين شريف مكة مغاضبة...". [٢]

وعلى هذا الأساس اتجهت أنظار أهالى الحجاز إلى الدول الإسلامية فى بلاد المغرب، والمعروف أن الدولة الحفصية كانت أقواهم وأكثرهم مكانة فى تلك الفترة، وبلغت أخبارها أقطاراً بعيدة وانتشر خبرها فى ارجاء العالم الإسلامى، ومن هنا كان شيئاً متقبلاً للجميع أن يبايع أهالى الحجاز وعلى رأسهم شريف مكة أبو نمى بن قتادة السلطان أبو عبد الله محمد المستنصر خليفة للمسلمين، ومنذ هذه اللحظة تلقلب بهذا اللقب. [٣]

ويرى البعض أن هناك ظروفاً قد ساعدت على بيعة شريف مكة للسلطان ابو عبد الله محمد المستنصر والمتمثل فى وجود العالم الحفصى أبو عبد الله محمد عبد الحق بن سبعين المرسى (ت ٦٦٩٩هـ /١٢٦٩م) [٤] فى أراضى الحجاز فى مكة فى تلك الفترة، وهو الذى سعى لإقناع شريف مكة ببيعة المستنصر، وعدم الاتجاه لبيعة المماليك أو غيرهم، وقد نجح فى ذلك. [١]

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م، ص ٤٧٧.

(٢) ابن خلدون : العبر، ج ٦، ص ٤٠٧.

(٣) ابن خلدون : العبر، ج ٦، ص ٤٠٧؛ محمد العروسى المطوى: السلطنة الحفصية تاريخها السياسى ودورها فى المغرب الإسلامى --دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٨٦م، ص ١٨٩؛ روبار برنشفيك: تاريخ إفريقية فى العصر الحفصى من القرن ١٣- ١٥ م- ترجمة حمادى الساحلى،، بيروت، ١٩٨٨م، ص ص ٧٠-٧١.

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن سبعين، أحد علماء الأندلس المشهورين، ولد فى مدينة مرسية الأندلسية الشهيرة، وكان قد رحل من مرسية نظراً لما وقع بها من اعتداءات مسيحية فى بلاد الأندلس، ففضل الرحيل منها إلى تونس الحفصية، وتقابل مع سلطانها أبو عبد الله محمد الحفصى، وأعجب بشخصيته إعجاباً شديداً، إلا أنه رحل إلى الحجاز وبعد اجتياح المغول بغداد نجح فى إقناع شريف مكة ببيعة المستنصر. انظر: الغبرينى : عنوان الدراية، ص ٢٠٩؛ محمد العروسى المطوى: السلطنة الحفصية، ص ١٩٠. وعنه يقول ابن خلدون أنه"... سالكاً مرتاضاً بزعمه على طريقة الصوفية، ويتكلم بمذاهب غريبة منها، ويقول برأي الوحدة،.... ويزعم بالتصوف على الأكوان

على أية حال تولى العالم المرسى ابن سبعين صياغة كتاب البيعة من أهالى مكة يمثلهم شريفها،ومما جاء فيها "... بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على الأسوة المختار سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. " إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾. (٢)

هذا النوع من الفتح أعنى المبين هو من كل الجهات داخل الذهن وخارجه، وهو الذي خصت به مكة، وهو أعظم فتح نذر في أيام الدهر والزمان، الفرد منه خير من أيام الشهر..... فمن فُتح عليه بفتح مكة تمت له النعمة، ورفعت له الدرجة، وضفت عليه الرحمة. ومن وصل سلطانه إليها فقد هدي الرشد وسار على صراطه..... ولعل الذي أقام الدين وأطلعه من المشرق وأتلفه منه، يجيره من المغرب ولا ينقله عنه .... إذا خرجت نار الحجاز يقتل خليفة بغداد، ويستقيم ملك المغرب وتبسط كلمته في الأقطار، ويخطب له على منابر خلفاء بني العباس، ويكثر الدر بالمعبر من بلاد الهند..... وما النصر إلا من عند الله وصلى الله على عبده محمد بن عبد الله أنه من بكة وأنه للحق .....

وفتح الله به باب الفتح في المشرق والمغرب بعد فتح الثغور، وشرح بنصره وفتحه أوساط الصدور، وما استنبطته الضمائر من نفثات الصدور وجبر به كسر الظفر....

على الجملة، فأرهق فى عقيدته، ورمى بالكفر أو الفسق فى كلماته..." انظر ابن خلدون : العبر، ج ٦، ص ٤٠٧.

(١) محمد العروسى المطوى: السلطنة الحفصية، ص ١٩٠؛ روبار برنشفيك: تاريخ إفريقية فى العصر الحفصى، ص ٧١.

(٢) سورة الفتح : الآيات من ١-٤.

كتب تجاه الكعبة المعظمة في الجانب الغربي من الحرم الشريف، والحمد لله ربّ العالمين. ولما وصلت هذه البيعة استحضر لها السلطان الملأ والكافة، وقرئت بمجمعهم وقام خطيبهم القاضي أبو البراء في ذلك المحفل فاسحنفر في تعظيمها والإشادة بحسن موقعها، وإظهار رفعة السلطان ودولته بطاعة أهل البيت والحرم ودخولهم في دعوته. ثم جار بالدّعاء للسلطان وانفضّ الجمع فكان من الأيام المشهودة في الدولة. (١)

وما يهمنا هنا من ألفاظ البيعة التى جاءت طويلة أوردها ابن خلدون فى كتابه العبر فى عشر صفحات، قام ابن سبعين فيها بتوضيح لماذا بنى حفص، وبين فيها ما كان من إدعاء الحفصيين من أنهم من نسب عمر بن الخطاب، وكذلك فضل المستنصر، وأحوال الخلافة العباسية وما دار بها من أحداث ومقتل الخليفة، وسمى كذلك المستنصر بلقب الخليفة، ثم ختم رسالته بتذكير المسلمين بانها كتبت فى الحرم الشريف بمكة المكرمة، وما لها من قداسة(٢).

ويرى أحد المؤرخين أن ابن سبعين قد صبغ بيعته هذه بصبغة صوفية، ظهرت فى الكثير من فقراتها. (٣)

وفى سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م تم إرسال نص البيعة سالفة الذكر للسلطان الحفصى مع أحد الأندلسيين أيضاً ويدعى أبو محمد عبد الحق بن برطة الأزدى الأشبيلى (ت ٦٦١هـ/١٢٦٣م) (٤)، ولما وصل إلى تونس تم دعوة الناس لاجتماع حافل وكان يوماً مشهوداً من أيام الدولة الحفصية، حيث احتفلوا ببيعة شريف مكة للمستنصر، فهم من وجهة نظرهم أعلى الناس فى العالم الإسلامى

(١) ابن خلدون : العبر، ج ٦، ص ص ٤٠٧- ٤١٧.

(٢)ابن خلدون : العبر، ج ٦، ص ص ٤٠٧- ٤١٧. .

(٣) أحمد بن أبى الضياف : اتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان – تحقيق لجنة وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٩٩م، ج ١، ص ١٦٠.

(٤) عالم أندلسى مشهور هاجر من الأندلس للمغرب، واشتهر فى علم لحديث الشريف، هاجر من تونس إلى المشرق، ثم عاد إلى تونس مرة أخرى، مستقراً بها حتى وفاته فى عام ٦٦١هـ/١٢٦٣م انظر : ابن قنفذ : الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية، ص ١٢٠؛ الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص ٣٧.

كله فى تلك الفترة، بل إنهم ارتقوا منزلة لم يكونوا يحلموا بها، وهم بذلك يرون أنهم أجدر أهل الأرض بالخلافة [١].

ويذكر الزركشى ان الحفل الذى أقيم بهذه المناسبة أنشد الشعراء فيه الشعر مهنئين الخليفة وأمير المؤمنين السلطان أبو عبد الله محمد المستنصر بمبايعته خليفة للمسلمين ومما قيل من شعر بهذه المناسبة :

أهنأ أمير المؤمنين بدعوة وافتك بالإقبال والإسعاد
فلقد حباك بملكه حب الورى فأتى يبشر بافتتاح بلاد
وإذا أتت أم القرى منقادة فمن المبرة طاعة الأولاد[٢]

كما أنشد أحد الشعراء يقول:

إن البشائر كلها جمعت للدين والدنيا وللإمام
نعمتين جسيمتين هما برء الإمام وبيعة الحرام[٣]

انتقلت الخلافة على الشكل سالف الذكر من المشرق الإسلامى إلى بلاد المغرب، واستمرت فى بنى حفص قرابة الثلاث سنوات من مطلع عام ٦٥٧هـ /١٢٥٩م حتى منتصف عام ٦٥٩هـ /١٢٦١م، وهو العام الذى دعى فيه السلطان المملوكى الظاهر بيبرس فى القاهرة لمبايعة أحد أبناء العباسيين الذى تمكن من الفرار من المغول الذين اجتاحوا بغداد وكان هذا الأمير هو أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسنوهو أحد أبناء الخليفة الظاهر لدين الله العباسى، وقدم هذا الأمير

(١) ابن خلدون : العبر، ج ٦، ص ٤١٧؛ ابن قنفذ: الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية، ص ١٢٠؛ الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص ٣٧؛ محمد العروسى المطوى: السلطنة الحفصية، ص ١٩١.

(٢) الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص ٣٧؛ أحمد بن أبى الضياف: إتحاف أهل الزمان، ج١، ص ٢٠٤.

(٣) محمد النيفر : عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب– المطبعة التونسية، تونس، د.ت، ج١، ص ٢٤٨.

إلى القاهرة بعد أن حقق المماليك النصر على المغول فى معركة عين جالوت واكتسب الظاهر بيبرس شهرة واسعة فى العالم الإسلامى (١).

وفى مشهد مهيب خرج السلطان المملوكى الظاهر بيبرس هو وقضاة الدولة وكبار رجالها مستقبلين الأمير أحمد العباسى، فقام قاضى القضاة وكان القاضى تاج الدين بن بنت الأعز وتلا نسب الأمير أحمد، ثم تمت بيعته بالخلافة فى شهر رجب عام ٦٥٩هـ/١٢٦١م، وبذلك انتهت خلافة المستنصر الحفصى فى بلاد المغرب، لتبدأ الخلافة العباسية فى المشرق من جديد، ناقلة مقر إقامة الخليفة العباسى من بغداد إلى القاهرة مقر دولة المماليك (٢).

خلاصة القول أنه على الرغم مما ذكره ابن قنفذ القسنطينى من أن الدولة المملوكية كانت قد اعترفت ولو لبعض الوقت بالخلافة الحفصية، ويذكر أن ذلك كان واضحاً جلياً فى كتاب السلطان الظاهر بيبرس للخليفة المستنصر الحفصى، يبشره فيه بهزيمة التتار ويذكر ذلك بقوله "... وفى سنة تسع وخمسين وستمائة المذكورة قرىء كتاب هزيمة التتار على المستنصر وخططه أهل الديار المصرية فى الكتاب المذكور بأمير المؤمنين.."(٣).

فيبدوا أن اعتراف المماليك وزعيمهم الظاهر بيبرس بخلافة المستنصر كان أمراً شكلياً وبشكل مؤقت، ربما كان راجعاً لحاجة دولة المماليك التى كانت فى طور النشأة لذلك التأييد، والمدد الشرعى لها، مكتسبة بذلك ولو بشكل مؤقت شرعية من تأييد شريف مكة ومبايعته للمستنصر

(١) تقى الدين المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك – تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٤م، ج ١، ص ٤٥١.

(٢)تقى الدين المقريزى : السلوك لعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٤٥١؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة–تحقيق محمد حسين شمس، بيروت،١٩٩٢م، ج ٧، ص ٢٠٦؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء : ص ٤٧٧؛؛ محمد العروسى المطوى : السلطنة الحفصية، ص ١٩٣.

(٣) ابن قنفذ : الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية، ص ١٢٥.

الحفصى، وهو ما يمكن أن يوطد على الأقل أقدام الدولة المملوكية وإن لم يستمر ذلك طويلاً، إلا أنه من وجهة نظرهم شرعية مكتسبة.

ويرتبط بالعلاقات الحفصية بالمشرق الإسلامى موقف دولة المماليك فى مصر من الحملة الصليبية الثامنة التى اتجهت لتونس عام ٦٦٨هـ /١٢٧٠م، والتى سيتم تناولها بالتفصيل بعد ذلك، والمهم هنا هو ما هو موقف القوة الإسلامية المشرقية والمتمثلة فى الدولة المملوكية من الأحداث فى تونس.

فبعد أن وصلت أخبار الحملة الصليبية على تونس إلى مسامع السلطان الظاهر بيبرس فى القاهرة، أمر على الفور عرب برقة بالتوجه إلى تونس العاصمة، للزود عنها، وأن يقوموا بحفر الآبار على طول الطريق إليها حتى يتم توفير المياه لمن أراد الزود عن المدينة، والجهاد ضد الحملة الصليبية. (١)

ويذكر أحد الباحثين المحدثين أن السلطان الظاهر بيبرس كان قد شرع فى تجهيز حملة كبيرة تنطلق من مصر للزود عن تونس بصفة خاصة والمغرب الإسلامى بصفة عامة، إلا أن هذه الحملة لم تخرج من مصر لوصول أبناء من تونس تفيد بانسحاب الحملة من أمام شواطئها بسبب تفشى الطاعون بين أفرادها (٢).

ويدلل على اهتمام مصر وسلطانها الظاهر بيبرس بأحوال الحملة فى تونس، ما كان فى عام ٦٧٠هـ /١٢٧٢م، حيث أرسل السلطان الحفصى المستنصر بوفد يحمل الهدايا للسلطان الظاهر بيبرس، الذى كان قد اتخذ موقفاً من المستنصر بسبب تهاونه من وجهة نظر بيبرس فى مواجهة الحملة الصليبية على تونس، فقام بتوزيع الهدايا على الأمراء الموجودين فى حضرة الوفد التونسى، ورد على السلطان الحفصى برسالة جاءت فى مجملها عبارة عن توبيخ للسلطان الحفصى بسبب موقفه من حرب الصليبيين، وأنكر عليه ما قام به، بل إنه اتهمه بعدم القدرة على تولى إمرة

(١) ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٤٢٨.

(٢) محمد العروسى المطوى : السلطنة الحفصية، ص ص ٢٠٥، ٢٠٨.

المسلمين، وأن الشروط التى عقد عليها الصلح مع الحملة كانت تحمل مهانة كبرى لدولة إسلامية بمنزلة الدولة الحفصية. (١)

على أية حال يكمن القول أن علاقة السلطان المستنصر الحفصى بالمشرق الإسلامى كانت علاقة اتسمت بالوجود الحفصى، فانتشار خبر الدولة الحفصية وقوتها ومكانتها بين دول المغرب فى تلك الفترة، كان قد أنزلها منزلة عظيمة بين تلك الدول، حيث أن الدولة الزيانية فى المغرب الأوسط لم تكن بقوة وهيبة الدولة الحفصية، وهو ما يدلل خضوعها لسلطان الحفصيين لبعض الوقت، وعلاوة على ما كان عليه حال الخلافة الموحدية فى المغرب الأقصى من تدهور وضعف، ومن هنا علا نجم الدولة الحفصية فى عصر المستنصر، ووصل إلى ربوع المشرق الإسلامى، الأمر الذى أقنع شريف مكة بأخذ البيعة له خليفة للمسلمين، ولو لم تكن الدولة الحفصية فى عصر المستنصر قد بلغت من القوة والصيت ما جعل لها مكانة مرموقة فى العالم الإسلامى لما اقتنع شريف مكة بمبايعة السلطان الحفصى خليفة للمسلمين.

- علاقة المستنصر الحفصى بالعالم المسيحى :

كانت الحملة الصليبية على تونس عام ٦٥٨هـ /١٢٧٠م إحدى أهم محاور العلاقات الإسلامية المسيحية فى العصور الوسطى ، حيث أن هذه الحملة كانت تعتبر تحولاً خطيراً فيما يعرف بحلقة الحروب الصليبية الداسرة بين الصليبيين فى أوروبا والمسلمين فى المشرق، وكانت المرة الأولى التى يتم توجيه حملة صليبية بعيداً عن ميدان الحملات السابقة وهو المشرق الإسلامى.

وهذه الحملة كانت قد قامت بها فرنسا بقيادة ملكها لويس التاسع الذى كان قد تم أسره فى المنصورة فى دار ابن لقمان بعد حملته الشهيرة على دمياط سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، إلا أنه هذه المرة اتجه إلى تونس ولم يتجه إلى مصر فما هى الأسباب التى جعلته يفكر جدياً فى الاتجاه نحو تونس وترك مصر.

(١) تقى الدين المقريزى : السلوك لعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٦٠١.

يذكر بعض المؤرخين أن سبب الحملة الصليبية على تونس بقيادة لويس التاسع أن لويس التاسع كان قد ذكر فى أحد مجالس المستنصر الحفصى وكان بعض الترك بين يديه، فلما ذُكر لويس التاسع قال المستنصر هو الذى أسره هؤلاء (يقصد الترك) وأطلقوه فبلغ ذلك القول للويس التاسع فحقد على المستنصر الحفصى، ورأى ضرورة التوجه إليه بحملة كبيرة لتأديبه والانتقام منه على ما قاله(١).

ويؤكد ابن تغرى بردى أيضاً أن بعض الأبيان الشعرية المغربية كانت قد وصلت لمسامع لويس التاسع، وكانت تستهزء به، وتذكره بأن تونس أخت مصر، وتذكره بواقعة أسره بدار ابن لقمان حيث قال أحد الشعراء المغاربة :

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتهيأ لما إليه تصير

لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير(٢)

فى حين يذكر بعض المؤرخين أن السبب فى توجه لويس التاسع ملك فرنسا إلى تونس كانت الهزيمة البشعة التى لقيها على تراب مصر فى حملته عليها سنة ٦٤٨هـ /١٢٥٠م، والتى انتهت بأسره فى دار ابن لقمان، وكان ذلك كفيلاً فى عودته للانتقام مرة أخرى، فبعد أن مكث فى الشام فترة، وعاد إلى بلده فرنسا فى عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م، وكان قد تعهد بعدم العودة لمهاجمة مصر أو المسلمين مرة أخرى، إلا أنه حسبما يذكر المؤرخ ابن قنفذ القسنطينى "... أبت نفسه الخبيث إلا نكث العهد ونزل بساحل أفريقيا..."(٣).

(١) ابن الشماع : الأدلية البينة النورانية فى مفاخر الدولة الحفصية – تحقيق محمد الطاهر محمد بن العمورى، تونس، ١٩٨٤م، ص ٧٠؛ الوزير السراج : الحلل السندسية فى ذكر الأخبار التونسية – تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٨٤م، ج١، ص ١٠٣٣.

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٦٨.

(٣) ابن قنفذ : الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية، ص ١١١.

ومن أرباب هذا الرأى القائل بأن حملة تونس كانت انتقام للحملة وما دار من أحداث فى مصر المؤرخ محمد بن شاكر الكتبى، الذى يرى أن الملك لويس التاسع كان قد غادر مصر بعد أسره فى دار ابن لقمان والنار تملأ قلبه مما دار بها من أخذ الأموال وقتل الرجال ووقوعه فى الأسر، فغادرها وكله شوق ورغبة فى العودة للانتقام، ولكن السبب فة اتجاهه لتونس وليس مصر هو تحذير قادته له من أنه إذا اتجه لمصر سيحدث له ما حدث فى حملته السابقة، وإنما استقر الرأى على تونس، وأغروه بأن استيلاءه عليها سيمهد لا محالة لدخول مصر(١).

ويؤكد بعض المؤرخين المستشرقين أن الحملة الصليبية الثامنة كانت فى مجملها رغبة جامحة لدى الملك لويس التاسع فى الحرب باسم الصليب من جديد لمسح الصورة التى لحقت به وبجنوده فى حملته على مصر وما دار بها من أحداث كانت فى نظرهونظر الكثيرين إهانة ما بعدها إهانة، وهنا قرر الملك أن يسترد الشرف لاسمه ولاسم جيشه، فقرر التوجه بحملته الصليبية الثامنة على تونس فى عام ٦٦٨هـ ١٢٧٠م.(٢)

كما يذكر البعض أن السبب فى توجه الملك لويس التاسع ملك فرنسا بالحملة الصليبية الثامنة إلى تونس كان لسبب دينى وهو أن لويس حاول نشر المسيحية فى شمال أفريقيا، مستنداً إلى مكاتبة قد وردت إليه من الراهب القطلونى المشهور رايموند مارتن الذى كان فى تونس فى تلك الفترة، وهو أحد أشهر الرهبان المسيحيين فى عصره، نزل تونس وتقابل مع سلطانها المستنصر، الذى استدعاه أكثر من مرة لتوضيح بعض الأمور الخاصة بالديانة المسيحية، وهنا ظن الراهب أن السلطان يكثر الأسئلة لرغبته فى الدخول فى المسيحية، وهنا راسل الراهب الملك

(١) الكتبى : فوات الوفيات، تحقيق محمد محى الدين، النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ج١، ص ١٥٦.

(٢) شارل أندريه جوليان : تاريخ أفريقيا الشمالية ترجمة محمد مزالى،و البشير بن سلامة، الجزائر، ١٩٨٦م، ج٢، ص ١٨٠؛ مكسيموس : من تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب، دير الفرنسيسكان، أورشليم، ص ٣٤٧؛

لويس محبباً إليه التوجه بحملة لتونس لتحويل أهلها للمسيحية، نظراً لما بدر من سلطانها المستنصر [١].

ويؤكد مؤرخ آخر الرأى القائل بأن القصد من حملة لويس التاسع على تونس كان بقصد نشر المسيحية والتوسع، ويقول بأن المبشرين المسيحيين فى تونس هم الذين أقنعوا الملك بضرورة التوجه لتونس بحملة لتحويل أهلها للمسيحية[٢]، حيث أن سلطانهم المستنصر كان قد أبدى معهم تسامحاً كبيراً، ومن وجهة نظرهم أن تعامله معهم يدل بصورة مباشرة على عدم منعه التحول للمسيحية. [٣]

ومن مؤيدى هذا الرأى من يذكر أن تسامح السلطان المستنصر مع المسيحيين، هو من أسس قناعة لدى الملك لويس التاسع بأن يتجه بحملته لتونس وكان ذلك بقصد نشر المسيحية، وأن تونس بموارها وموقعها تمكنه من تحقيق هدفه هذا [٤].

(١) حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامى حتى الغزو الفرنسى، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت،، ط١، ١٩٩٢م، ج ٢، ص٢١٦.

(2) Michael Lower: Tunis in 1270: A Case Study of Interfaith Relations in the Late Thirteenth Century, The International History Review, Vol. 28, No. 3 (Sep., 2006), pp.504-505.

(٣) روبار برنشفيك : تاريخ إفريقة فى العهد الحفصى، ج١، ص ص ٨٨-٨٩ .

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية الحركة الصليبية صفحة مشرفة من جركات الجهاد الإسلامى في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،٢٠١٠م ، ج٢، ص ١٢٣٨ ؛ وللمزيد عن وضع أهل الذمة فى الدولة الحفصية انظر: زينب عبد الله كرير :أهل الذمة فى العهد الحفصى، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ٢٠٠٥م.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية:

ابن الآبار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى (ت ٦٥٨هـ/١٢٥٨م)

- الحلة السيراء – تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة،١٩٨٥م.

البغدادى : صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م)

- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع– تحقيق على البجاوى، مكتبة الحلبى، القاهرة، ١٩٥٤م.

ابن تغرى بردى: جمال الدين أبى المحاسن بن تغرى بردى الأتابكى (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م)

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة–تحقيق محمد حسين شمس، بيروت،١٩٩٢م.

الحميرى: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت أواخر القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى)

- الروض المعطار فى خبر الأقطار – تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٤م.

ابن الخطيب: أبو عبد الله محمد لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤م)

- الإحاطة فى أخبار غرناطة – تحقيق عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٧٤م.

ابن خلدون: أبو زكريا يحي بن خلدون (ت ٧٨٠ هـ/ ١٣٧٨م)

- بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد – تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر، ١٩٨١م.

ابن خلدون: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥م).

- العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر – تحقيق خليل شحاتة، بيروت، ٢٠٠٠م.

ابن أبى زرع: أبو الحسن على بن عبد الله بن أبى زرع الفاسى (ت بعد عام ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٤م)

- الأنيس المطرب بروض القرطاس – الرباط، ١٩٧٣م.
- الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية – تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ١٩٧٢م.

الزركشى: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤى (ت ٩٣٢هـ/١٥٢٥م)

- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية – تحقيق محمد ماضور، تونس، ط ٢، ١٩٦٦م.

ثانيًا: المراجع العربية والمعربة:

- تاريخ إقريقية فى العهد الحفصى من القرن ١٣- ١٥ م- ترجمة حمادى الساحلى،، بيروت، ١٩٨٨م

جوليان: شارل أندريه جوليان :

- تاريخ أفريقيا الشمالية ترجمة محمد مزالى،و البشير بن سلامة، الجزائر، ١٩٨٦م.

خلف الله: ابتسام مرعى خلف الله :

- العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامى ٥٢٤-٩٣٦هـ /١١٣٠-١٥٢٩م، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م

عامر: سامية عامر:

- الصليبيون فى شمال أفريقيا، دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ٢٠٠٢م.

ثالثًا: الرسائل الجامعية :

بوتشيش: أمنية بوتشيش :

- بجاية دراسة تاريخية وحضارية بين القرنين السادس والسابع هجريين، رسالة ماجستير، جامعة أبى بكر بلقايد، تلمسان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٨.

شقدان: بسام كامل عبد الرازق شقدان:

- تلمسان فى العهد الزيانى، راسلة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٢م،

كرير: زينب عبد الله كرير
- أهل الذمة فى العهد الحفصى ،رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ٢٠٠٥م.

رابعًا: المصادر والمراجع الأجنبية:

Bellamy: James A

- Ibn al-Abbar, polític i escriptor àrab valencià (1199-1260): Actes del Congrès Internacional "IbnAl-Abbar i el seu temps," Onda, 20-22 febrer, 1989

Louis de Mas Latrie :

- Relations commerciales de Florence et de la Sicile avec l'Afrique au Moyen Âge, Bibliothèque de l'école des chartes Année, Vol.51859
- Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au moyen age,Paris,1866

Michael Lower:

- Tunis in 1270: A Case Study of Interfaith Relations in the Late Thirteenth Century, The International History Review, Vol. 28, No. 3 (Sep., 2006)

Michel MOLLAT :

- LE "PASSAGE" DE SAINT LOUIS A TUNIS: Sa place dans l'histoire des croisades Revue d'histoire économique et sociale, Vol. 50, No. 3 (1972